

احتمالات الغدر. وجرى تنظيم القوات، تنظيم خروجها، وكان خروجها أشبه بالأعراس التي يتخللها الدموع واطلاق الرصاص، صور لا تنسى، شخصياً، عندما أصبح الخروج حقيقة واقعة، أحسست بالضبط بمعاناة وآلام هذه الحرب. كان الملعب البلدي أثناء مغادرة المقاتلين صورة معبرة، المرأة اللبنانية والفلسطينية، الطفل والرجل، كان الجميع يراكب الأبطال ويحرص، قبل موعد المغادرة بساعات وعلى امتداد الطريق، على أن يودع هذا البطل بكل الاعتزاز والفخر والألم والمعاناة. لاشك في أن صورة الملعب البلدي ونحن نحتفل فيه بأعياد الثورة والجهة والشعب جالت ببال كل قائد فينا، وممرت بخاطره، لحظة الوداع. هاتان الصورتان بما تحملانه من معانٍ وآلام، أثرتا في نفس كل مناضل وقائد فلسطيني، وأثرتا بعمق القناعة والإيمان بمتابعة الصراع حتى يحقق هذا الشعب أهدافه الوطنية، ويقوم دولته ككل شعوب الأرض.

عند المغادرة، حرص المجلس العسكري على أن يغادر مع القافلة الأخيرة. وحرصنا على زيارة مقبرة الشهداء قبل المغادرة بقليل. آخر قافلة من المقاتلين كانت تضم عدداً من الأخوة القيايين وأعضاء المجلس العسكري الأعلى. وقفنا في مقبرة الشهداء بشعور، وكان معنا الأخ أبو الوليد، الشهيد الذي انضم إلى هؤلاء الأبطال، وقفنا معاً، وضعنا أكليلاً، وكل الذي قلناه لأنفسنا وقاله البعض منا للآخر على تربة المقبرة: «نودعكم، في أرض لبنان أمانة في عنق الشعب اللبناني، وفي عنق كل من يبقى منا حياً في ميدان الصراع». وعاهدناهم على أن نتابع الصراع حتى يحقق شعبنا أهدافه التي من أجلها استشهدوا. عاهدنا هؤلاء الشهداء على أن تبقى أوفياء لأهدافهم ومسيرتهم، وأن نبذل كل ما لدينا من طاقة وجهد حتى نحافظ على تضحياتهم وإنجازاتهم. كانت المغادرة وركوب الباخرة شيئاً مؤلماً حقاً؛ مؤلم أن نصعد إلى الباخرة، ونحمل المنظار، نشاهد العدو وعدداً من قياداته؛ مؤلم وجارح أن نرى المارينز الأميركيين هم الذين يقومون بعملية تسهيل خروجنا، يتسم واحد منهم لك دون أن تطلق عليه الرصاص لأن الإدارة الأميركية هي صاحبة خطة المذبحة كلها. العدو الأميركي هو الذي أعطى الضوء الأخضر للغزو الإسرائيلي، وساهم في التفاصيل. كان مؤلماً أن يشاهد المرء جنود المارينز الذين لزالوا حتى الآن في الأراضي اللبنانية، وكنا نتألم لرؤيتهم ونقول: «أمان الله الشعب اللبناني وقواه الوطنية على هذه القوى العدوانية التي وطأت أرضه». لأن وصول المارينز والقوات متعددة الجنسيات، له أهداف أكبر من إخراج المقاتلين الفلسطينيين؛ توجد مطامع مباشرة للأعداء في الأرض اللبنانية. حقيقة، أحس المرء منا بالمرارة والألم عند الخروج. أتذكر أن لحظات صمت طويلة لفت أجواءنا على ظهر الباخرة في البداية وكان الأمر حلم أو شريط سينمائي نشهده ونعيشه لحظة بلحظة. لم يسعد أي منا بالمغادرة، بل، على العكس، فصنا من كانت دموعه سخية ورأيها تنهمر، ومن كان عصي الدمع فيما كانت أعضائه تتمزق ألماً لهذه المغادرة. ويزداد الألم لأن هناك إدراكاً لأبعاد وحجم الآلام والمعاناة التي سيعانيها شعبنا والشعب اللبناني بسبب من مغادرتنا. كان من المضحك المبكي بالنسبة لي منظر البوارج الحربية الفرنسية والأميركية التي واكبت قافلنا حتى ميناء طرطوس بتاريخ ١٩٨٢/٩/١. بالتأكيد سيبقى هذا التاريخ، بالنسبة لي، شيئاً لا ينسى. على ظهر الباخرة، قبل